إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الثانية – العدد الثامن – شتاء ١٣٩١ش/ كانون الأول ٢٠١٢م
صص ١٣٣ ـ ١٤٧

شخصية دِعْبِل الخُزاعِی من خلال التناقضات

يحيى معروف*

الملخص

قلما نجد شاعرا أو كاتبا شيعيا دافع عن النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) وآل بيته الأبرار إلا ونجد أنواع التهم تخيم عليه. هذا المقال يدرس تناقضات المؤرخين من خلال تعريفهم لدِعْبِل الخُزاعِی (الشهيد سنة ٢٤٦ق) فيحاول الإجابة عن الأسئلة التالية: ١. هل يمكننا الاعتماد على أقوال بعض المؤرخين للتعريف بشخصية دعبل الخزاعی رغم تناقضاتهم؟ ٢. هل للتعصب دور فی آرائهم وأقوالهم؟ ٣. هل هناک أقوال أخرى وردت فی كتبهم تنفی مزاعمهم فيما زعموا؟

يحاول الباحث عرض التُّهم التی أُلصِقَت بشاعرنا ثم الإجابة عنها مستخدما نفس الكلمات الواردة فی أقوال هؤلاء المؤرخين ويظُّل القصد من ذلک هو إلقاء المزيد من الضوء على تلک التهم والمقارنة بين أقوالهم ليتبين للقارئ نياتهم حتى يصل إلى الاستنتاج المنطقی.

وللبحث فرضيات نحاول إثباتها وهی: ١. أقوال وآراء هؤلاء المؤرخين للتعريف بشخصية شاعرنا نابع عن حقد دفين. ٢. إنهم اضطرّوا لخلق التُّهم لإبعاد الناس عن الشيعة وشعرائهم. ٣. توجيه هذه التهم لم يكن إلا بأمر من سلاطين الجور.

الكلمات الدليلية: دعبل الخزاعی، المؤرخون، الشاعر الملتزم، آل بيت النبی (صلى الله عليه وآله وسلم).

---

*. جامعة رازی، كرمانشاه، إيران. (أستاذ مشارک) y.marof@yahoo.com
تاريخ الوصول: ١٣٩١/٤/١هـ. ش تاريخ القبول: ١٣٩١/٩/٨هـ. ش

المقدمة

الذين دافعوا عن آل بيت نبينا المختار (صلى الله عليه وآله وسلم) كانوا أكثر الناس عرضةً لأنواع المخاطر كالقتل والتعذيب وتلطيخ السُمعة مثلما ورد فى أمهات المصادر العربية التى تتهم هؤلاء الشعراء بلؤم الطبع، والبخل، ودناءة النفس رغم ذلک احتفظت نفس المصادر ولو بقدر يسير، من صفاتهم السامية، وهذا القدر على قلّته يكفى للتدليل على صحة ما ذهب إليه الباحث.

الدراسات السابقة

هنـاک كتب ومقالات عدة تلقى الضوء على بعض الزوايا من حياة دعبل الخزاعى ولكن لم نعثر على بحث شـامل ينفى مزاعم المؤرخين فى التهم الموجهة إلى هذا الشاعر الملتزم الذى قدم النفس والنفيس فى الدفاع عن عقيدته السامية.

لاشـک أنه قلّما نجد شـاعرا أو كاتبا شـيعيا دافَعَ عن النبىّ (صلى الله عليه وآله وسلم) وآل بيته الأبرار إلا ونجد أنواع التهم تخيم عليه نحو: (كان فاسداً)، (كان فاسقاً)، (كان رافضيّـاً)، (كان كثـير التعصب والغلـو)، (كان ظالماً)، (كان أحمـق)، (كان بخيلاً)، (كان كذوباً) وهكذا دواليک. وبالرجوع إلى تراجم هؤلاء الذين رُموا بالفسق والخيانة والحماقـة والخروج عن الدين وغير ذلک، نجد من بين هـؤلاء فريقاً كان معروفاً لدى الرواة بالصدق والوفاء والالتزام بالتقوى وجودة الشعر. ويظهر من أخبارهم أن هؤلاء الشـعراء لم يسـتطيعوا أن يتأقلموا مع حياة الظلم والاضطهاد، ومضوا يعيشون الحياة كأحرار غير مبالين بسلوک الطغاة والجبابرة وأوامرهم ونواهيهم.

ومنهجنا فى هذا البحث هو الكشـف عن حقيقة أحد الشـعراء الملتزمين من خلال أقـوال المؤرخين فى نصوصهم التأريخية. ثم المقارنة بـين أقوالهم ليتبين للقارئ المنصف نياتهـم حتى يصل إلى الاسـتنتاج المنطقى والرأى السـليم. فالبحث يعرض جانبا من جوانب السلوک الاجتماعى، لدى دِعْبِل بن علىّ الخُزاعِى (الشهيد ٢٤٦ق) الذى دافع عن آل بيت النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) بنفسه ونفيسه.

يحـاول الباحث عرض التُّهم التى ألصقت به. ويظل القصد من ذلک هو إلقاء المزيد مـن الضـوء على تلک الانتقادات التى تناقلها الرواة فى هذا الشـأن. فالدراسـة هذه

لاتسعى إلى إثبات التهم التى تناقلها الرواة عن دعبل أو رفعها عنه، بل هى إلمامة إخبارية قُصد من حصرها وإيرادها عرضها وإخضاعها للدراسة من خلال الموازنة بينها وبين ما نسب إليه. وهنا نلقى الضوء على حياة شاعرنا الفذّ:

ولد «دعبل» فى الكوفة سنة ١٤٨ق،(ابن خلكان، ١٩٦٨م: ٢/ ٢٧٠؛ الخطيب البغدادى، ١٤١٧ق: ٨/ ٣٨١) ونشأ فيها. والمعروف أن هذه المدينة كانت تتصف بولاء معظم أبنائها لآل البيت (عليهم السلام). وقد عاصر تسعة من خلفاء العباسيين هم: المنصور [بدأت خلافته سنة ١٣٦ق] والمهدى، والهادى، والرشيد، والأمين، والمامون، والمعتصم، والواثق، والمتوكل [انقضت خلافته سنة ٢٤٧ق] فهو ينتمى فى نسبه إلى قبيلة خزاعة المعروفة بولائها العريق للإسلام ولرسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولأهل بيته (عليهم السلام) فعبد الله بن بديل بن ورقاء، الجد الأكبر لدعبل، كان هو وأخوه عبد الرحمن رسولَى النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى اليمن. وكانا وشقيقهم عثمان من فرسان جيش الإمام علىّ بن أبى طالب (عليه السلام) فى صفين. قال أبو الفرج الأصبهانى فى الأغانى: (١٤٠٧ق:١٣٢/٢٠) «كان دعبل من الشيعة المشهورين بالميل إلى علىّ صلوات الله عليه.» فترعرع فى أسرة موالية لأهل البيت (عليهم السلام) ، وعلى الرغم من كل الصور المشوهة التى نسجها بعض المؤرخين حول شخصيته، لم يستطع أحد أن يطعن فى عقيدته أو يتهمه بالانحراف عن ولائه لأهل البيت (عليهم السلام). فشعره يعكس وجهة نظره العقائدية فى فهم التشيع. وهنا نكتفى بما قاله ياقوت الحموى فى معجم الأدباء: (١٣٥٥ – ١٣٥٧ق: ١٩٦/٤) «قصيدته التائية فى أهل البيت من أحسن الشعر، وأسنى المدائح قصد بها على بن موسى الرضا عليه السلام بخراسان.»

والآن نصل إلى تهم الرواة دعبلَ وما قيل عنه فى المصادر العربية فلنبدأ بكتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى (٣٦٢-٤٨٤ق): هذا الكتاب من أهم ما وصل إلينا من كتب التراث العربى، واعتمد عليه معظم المؤلفين بعده، فكان أهم مصدر من مصادر تأليفهم فى الأدب والنقد والتاريخ والحضارة العربية بكافة جوانبها وعصورها منذ الجاهلية وحتى عصر مؤلفه. عبَّر عنه ابن خلدون فى مقدمته (١٩٦١م: ١٠٧٠) بقوله: وقد حصلت لهذا الكتاب شهرة واسعة جداً، منذ أن ظهر للناس أواسط القرن الرابع للهجرة ووصلت شهرته إلى الأندلس سريعاً، فبعث الحكم المستنصر إلى مؤلفه ألف دينار

عيناً ذهباً، وخاطبه يلتمس منه نسخة. فبعث إليه منه نسخة حسنة منقحة (ابن الأبار الأندلسى، ١٩٦٣م: ٣٠١/١) كما بعث بنسخة أخرى إلى سيف الدولة الحمدانى أمير حلب «فأنفذ إليه ألف دينار.» (ابن منظور، ١٩٦٥-١٩٦٦م: ١/١) ورغم هذه الشهرة الواسعة نقده الكثيرون فذكروا مواضع الخَلل والاضِطراب والتناقض فيه. (انظر: محمد خير شيخ موسى، ١٩٨٩م)

التهمة الأولى

ذكر ابوالفرج الأصفهانى بعد أن نسب إليه أوصافاً ممتازة كـ«شاعر متقدم مطبوع» (١٤٠٧ق:١٣١/٢٠) ثم تابع القول فقال: «هجَّاءٌ خبيثُ اللِّسان!!، لم يسلم عليه أحدٌ من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم.» وقال الخطيب البغدادى: (١٤١٧ق: ٢٤٦/٨) «وكان خبيثَ اللسِّان قبيحَ الهجاء.» وقال ابن خلكان (٦٠٨ - ٦٨١ ق) فى وفيات الأعيان (١٩٦٨م: ٢٢٧/٢): «كان شاعرا مجيدا إلا أنه كان بذى اللسان مولعاً بالهجو والحطّ مِن أقدار الناس.» وقال أبو إسحاق القيروانى الحصرى (ت ٤١٣ق) فى زهر الآداب (لاتا: ٨٦/١): «كان دعبل مداحاً لأهل البيت عليهم السلام كثير التعصب لهم والغلو فيهم.»

وجوابه هو: أن فى سيرة دعبل ملامحَ من العزم والقوة والاستمرار على المبدأ فدعبل يختلف عن شعراء عصره الذين أكثروا شعر المديح فى الحكّام العباسيين، فهو كان يعبر بصراحة وصدق عما يراه ويشاهده من أحداث عاشها وعانَى منها الكثير، وكان يوجّه النقد الصريح للحاكمين دون خوف أو وجل، ممّا لوّن شعره بطابع الهجاء ولهذا أصبح محلاً للتجريح من قِبل البعض. لأنه كان شديد الموالاة لآل البيت (عليهم السلام)، متجاهراً فى ذلك، متعرضاً بالهجاء لكل من يناوؤهم. وقد تحمَّل فى سبيل ذلك كثيراً من المتاعب، واضطر إلى عبور الصحارى والفلوات هرباً ممن هجاهم من الخلفاء. قيل له: لماذا تهجو من تخشى سطوته؟ قال: «أنا أحمل خشبتى على كتفى منذ خمسين سنة، فلست أجد أحداً يصلبنى عليها.» (الأصفهانى، ١٤٠٧ق:١٣٣/٢٠؛ ابن خلكان، ١٩٦٨م: ٢٢٧/٢)

وأما أسباب هجاءه المقذع للخلفاء الذين عاصرهم يعنى هارون الرشيد، محمد الأمين، المامون، المعتصم، والمتوكل ووزراء هؤلاء الخلفاء، دون أدنى شك هذا دليل جرأته وإقدامه على هجاء من يستحق الهجاء، ولو أدَّى ذلک إلى الصَّلب. فلم يكن هجاؤه للخلفاء والحاكمين عندئذ إلا بدافع العقيدة وموالاة أهل البيت (عليهم السلام). لأن الولاية لاتكون خالصة إلا بالبراءة ممن يضادها ويعاندها، كما تبرأ اللّهُ ورسولُه من المشركين. وأما كلام أبى إسحاق القيروانى الذى ادعى أنه: «كثير التعصب لهم والغلو فيهم.» ليس إلا مجرد ادعاء لأنه لم يأت بنموذج ليثبت ادعاءه. فهذه الأقوال وما شابهها أطلقت على الكثيرين من موالى آل البيت (عليهم السلام) على مرِّ العصور.

التهمة الثانية

ذكر ابوالفرج سبب خروجه عن الكوفة قائلاً: (الأصفهانى، ١٤٠٧ق: ١٣٦/٢٠) «عن أبى خالد الخزاعى: كان سبب خروج دعبل بن علىّ من الكوفة أنه كان يتشطَّر ويصحب الشُّطار [كان هذا الاسم يطلق على أهل البطالة والفساد فى أيام الدولة العباسية]، فخرج هو ورجل من أشجع فيما بين العشاء والعتمة، فجلسا على طريق رجل من الصيارفة [مفردها الصيرفىّ: الذى يبدل النقود]، وكان يروح كل ليلة بكيسه إلى منزله، فلمّا طلع مقبلاً إليهما وثبا إليه فجرحاه، وأخذا ما فى كُمِّه، فاذا هى ثلاث رمانات فى خرقه، ولم يكن كيسه ليلتئذ معه، ومات الرجل مكانَه، واستتر دعبلُ وصاحبُه، وجدَّ أولياء الرجل فى طلبهما، وجدَّ السلطان فى ذلک، فطال على دعبل الاستتار، فاضطر إلى أن هرب من الكوفة. قال أبو خالد: فما دخلها حتى كتبتُ اليه أعلمه أنه لم يبقَ من أولياء الرجل أحدٌ!!»

وقد نسى أبوالفرج ما نقلها فى الصفحات السابقة من كتابه فذكرها مرة أخرى بشكل آخر فيه تناقض عجيب فى كيفية قتل الصيرفىّ حيث قال: «....عن أبى خالد الأسلمى كان يتشاطر بالكوفه وهرب منها بعد ما قَتَلَ صيرفياً: أخبرنى الحسن بن علي قال حدثنا ابن مهرويه قال حدثنى ابن الأعرابى عن أبى خالد الأسلمي قال: كان دعبل بن على الخزاعى بالكوفه يتشطر وهو شاب، ....وكان يصلت علي الناس بالليل فقَتَلَ رجلاً صيرفياً، وظن أن كيسه معه، فوجد فى كمه رماناً فهرب من الكوفة.» (الأصفهانى،

۱٤۰۷ق: ۱٤٥/۲۰)

وجوابه هو: أننا نتوقع من القارىء المنصف ليقارن بين ما قاله أبوالفرج نقلا عن رجل باسم «أبى خالد الأسلمى» فهو تارة يقول: «وثبا اليه فجرحاه، وأخذا ما فى كُمِّه..... .ومات الرجل مكانَه»، ثم يقول: «فقَتَلَ رجلاً صيرفياً.»؛ ولو فرضنا أن هذا الخبر صحيحاً فهل مات هذا الرجل طبيعياً كما يموت الإنسان فى بيته أو فى الطريق؟ أم قَتَلَه دعبل؟! فأىُّ قول من الأقوال يعتبر صحيحاً؟ لأنه كما ذكر الأصبهانى: مرة هجم عليه الرجلان فمات الرجل مكانَه إثر جرح طفيف!! ومرة أخرى ينسى ما قاله سابقاً فيقول: «قَتَلَ صيرفياً» بنفسه! فهل كان دعبل شريكاً فى الموت أو قتله بنفسه للوصول الى كيسه؟!!

ومما لا شك فيه أن مصدر الروايات التى قيلت فى دعبل كلها واحدة وهو «أبو خالد الأسلمى»، والظن أن طابع الوضع عليها واضح بقصد تلطيخ سمعته. وكما يظهر عن كلام "أبى خالد» إنه كان شديد التعصب على دعبل بل يمكننا نعتبره من ألد خصامه فمن الطبيعى أن يسعى وراء هذه الأكاذيب. فخير مثال على هذا هو ما ورد فى الأمثال الفارسية حيث يقال: «إن الكذَّاب تقلُّ ذاكرتُه.» والآن نلفت انتباهكم إلى ما قاله أبو الفرج عن حضور الشاعر لدى الإمام الرضا (عليه السلام) وبكاء الإمام إلى درجة الإغماء وإعطائه عشرة آلاف درهم وحلىّ كثير وثوباً من ثيابه، وإنه كيف امتنع عن بيع الثياب مقابل دفع مبالغ باهظة من قبل أهالى مدينة قم المقدسة. فهل يعقل للإنسان اللبيب أن يخطر بباله أن دعبل هجم على صيرفىّ طمعاً لسرقة أمواله؟!!

قال أبوالفرج الأصفهانى (۱٤۰۷هـ:۱٦۲/۲۰)؛ وقد ذكرها أيضاً فى (۱٤۰۷هـ:۱۳۲/۲۰) فضلاً عن ذلک ورد فى تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (لاتا: ۲٦۲/۱۷) «...قال [دعبل]: دخلت على علىّ بن موسى الرضا -عليهما السلام - فقال لى: أنشدنى شيئاً مما أحدثتَ، فأنشدتُه:

مَدارسُ آياتٍ خَلَتْ مِنْ تلاوَةٍ ومنزلُ وحيٍ مُقْفِرُ العَرَصَاتِ

حتى انتهيتُ إلى قولى:

إذا وُتِرُوا مَدُّوا إلى واتريهم أكُفّاً عنِ الأوتارِ منقبضات

قال: فبكى حتى أُغْمِى عليه، وأومأ إلى خادم كان على رأسه: أن أسكت، فسكتُّ ساعةً، ثم قال لى: أعِدْ، فأعدتُ حتى انتهيت إلى هذا البيت أيضا، فأصابه مثل الذى أصابه فى المرة الأولى، وأومأ الخادم إلىَّ: أن اسكت، فسكتُ، فمكث ساعة أخرى ثم قال لى: أعد، فأعدت حتى انتهيت إلى آخرها، فقال لى: أحسنت، ثلاث مرات، ثم أمر لى بعشرة آلاف درهم مما ضُرِبَ باسمه، ولم تكن دُفِعَتْ إلى أحد بعدُ، وأمر إلى مَنْ فى منزله بحلىّ كثير أخرجه إلىّ الخادم، فقدمتُ العراق، فبعتُ كلَّ درهم منها بعشرة دراهم، اشتراها منى الشيعة، فحصل لى مائة ألف درهم، فكان أول مال اعتقدته. يستوهب الرضا (عليه السلام) ثوباً لبسه ليجعله فى أكفانه: قال ابن مهرويه وحدثنى حذيفة بن محمد: أن دعبلاً قال له: إنه استوهب من الرضا عليه السلام ثوبا قد لبسه فى أكفانه فخلع جبة كانت عليه، فأعطاه إياها وبلغ أهل قم خبرها فسألوه أن يبيعهم إياها بثلاثين ألف درهم، فلم يفعل، فخرجوا عليه فى طريقه، فأخذوها منه غصباً، وقالوا له: إن شئت أن تأخذ المال فافعل، وإلا فأنت أعلم. فقال لهم: إنى والله لا أعطيكم إياها طوعاً، ولاتنفعكم غصباً، وأشكوكم إلى الرضا عليه السلام. فصالحوه على أن أعطوه الثلاثين الألف الدرهم وفَرْدَ كُمٍّ من بطانتها فرضى بذلك.»

التهمة الثالثة

٣. قال أبوالفرج الأصفهانى: (١٤٠٧ق:١٤٩/٢٠) «كان دعبل يخرج فيغيب سنين، يدور الدنيا كلها، ويرجع وقد أفاد وأثرى. وكانت الشراة [الخوارج] والصعاليک يلقونه فلايؤذونه، ويؤاكلونه ويشاربونه ويبرونه، وكان إذ لقيهم وضع طعامه وشرابه، ودعاهم إليه،... وسقاهم وشرب معهم، وأنشدهم، فكانوا قد عرفوه، وألفوه لكثرة أسفاره، وكانوا يواصلونه ويصلونه.»

وجوابه هو: أن غيابه عن الناس وتجواله هنا وهناک فراراً من حكام الجور أو لكسب لقمة العيش فهو أمر طبيعى لأنه كان يلتقى لدى جولته بالخوارج واللصوص فهم كانوا يزورونه ولايصيبونه أذى فهم يؤاكلونه ويشاربونه وهو أيضاً عندما كان يبسط مائدته يستدعيهم لتناول الطعام معه. هذا إن لم يكن حسناً فليس بعيب لأنه يدل على سجاياه الأخلاقية بعبارة أخرى جذب إليه حتى اللصوص والخوارج رغم الاختلاف

بينهم فى الأفكار والاعتقادات.

التهمة الرابعة

قال أبوالفـرج الأصفهانى: (١٤٠٧ق:١٣٧/٢٠) «... عـن أبى خالد الخزاعى قائلاً قلـت لدعبل: ويحک قد هجوتَ الخلفاء والوزراء والقوادَ ووَتِرْتَ الناس جميعاً [أصبح لهم عندک وتر؛ والوتر: الثأر]، فأنتَ دهرَکَ کلَّهُ شـريد طريد هارب خائف، فلو کففتَ عن هذا وصرفتَ هذا الشَّـرَّ عن نفسـک! فقال: ويحکَ؟ إنى تأملتُ ما تقول، فوجدتُ أکثـر الناس لايُنْتَفَعُ بهم إلا عَلَى الرَّهْبَةِ، ولايُبالَى بالشَّـاعرِ وإنْ کانَ مُجيداً إذا لَمْ يُخَفْ شَـرُّهُ، ولَمَنْ يَتَّقيکَ عَلَى عِرْضِهِ أَکْثَرُ مِمَّنْ يَرْغَبُ إليک فى تشـريفِهِ. وعُيوبُ النَّاسِ أکثرُ مِنْ محاسِـنِهِمْ، وليس کلُّ مَنْ شَرَّفْتَهُ شَرُفَ، ولا کل من وصفتَهُ بالجود والمجد والشجاعة ولم يکـن ذلک فيه انتفع بقول، فاذا رآکَ قد أَوْجَعْتَ عِرْضَ غيره وفضحتَهُ اتَّقَاکَ عَلَى نَفْسِـهِ وخافَ مِنْ مِثْلِ ما جَرَى على الآخر. وَيْحَک، يا أبا خالد إن الهجاءَ المُقذع آخِذٌ بِضبعِ الشاعر مِنَ المديحِ المُضْرِعِ. فَضَحِکْتُ مِنْ قولِهِ، وقلتُ: هذا والله مقالُ مَنْ لايموتُ حَتْفَ أَنْفِهِ.»

وجوابه هو: أن کلام «أبى خالد الخزاعى» أشـبه بحکاية مضحکة لأن الذى يسـير وراء المنافع المادية لايُلْقى بنفسه إلى التهلکة عن طريق هجو الملوک والخلفاء والوزراء لکسب الثروة فهو لو کان ماديا لمدح الممدوحين فلم يهج أحدا هجوا مقذعا. وإذا کان يقصد من وراء هجوه اکتسـاب المال لم يقل: «أنا أحمل خشـبتى على کتفى منذ خمسين سـنة، لست أجدُ أحداً يصلبنى عليها.» (الأصفهانى، ١٤٠٧ق: ٢٠/ ١٣٣) إنه کان يعلم أن هجـو الظالمين والمسـتکبرين لأجل الدين يؤدى إلى استشـهاده رغم ذلک لم يخف منهـم مـادام حياً. فضلاً عن ذلک إذا کان غرضه کسـب المال لـکان بمقدوره أن يضع لسـانه فى سـوق الارتزاق کما فعل غيره، ولو فعل ذلک لفاق أقرانه وجمع أموالاً هائلة لايمکن حصرها، ولکنه أبى إلا أن يضحّى بالغالى والنفيس من أجل عقيدة کان يناصرها ضمـيره، وليس هناک مجال للتظاهر بالتشـيّع مادام التشـيّع محارَبـاً من قبل الحکومة العباسـية. هـو کان يعرف جيداً أن مـن يتکلم عن مناقب الوصى يُقطع لسـانه ويُمزق ديوانه. فلذلک ألزم أئمة الشـيعة التقية على شـيعتهم حفظاً على دمائهم التى استحلها

أولئک المجرمون الذين خلقوا للجريمة والإساءة إلى الناس، ولولا التقية لما بقى للشيعة اســم ولا رسم. لقد شدد الأئمة الطاهرون على شيعتهم بكتمان إيمانهم وإخفاء عقيدتهم حفظا لدمائهم وإبقاءا على وجودهم.

التهمة الخامسة والجواب من دعبل نفسه:

قال أبوالفرج الأصفهانى: (١٤٠٧ق:١٩٦/٢٠) «يُتَّهم دعبل بشــتم بنت عبد المطلب [عليهما السلام] فيهرب وينكر التهمة: أخبرنى الحسن بن علىّ قال: حدثنا ابن مهرويه قال: حدثنى أبى قال: قَدِمَ دعبلُ الدينورَ، فجرَي بينه وبين رجل من ولد الزبير بن العوام كلامٌ وعربدةٌ على النبيذِ، فاســتعدى على عمرو بن حميد القاضى، وقال: شــتمَ [دعبل] بنــتَ عبــد المطلب، واجتمع عليه الغوغاء، فهرب دعبــل، وبعث القاضى إلى دار دعبل فــوكل بها وختم بابــه، فوجَّهَ إليه بِرُقْعَةٍ فيها: ما رأيتُ قــطُّ أجهلَ منک إلا مَن وَلَّاک، فأنــه أجهلُ، يقضــى فى العربدة على النبيذ، ويحكم على خصم غايب، ويقبل عقلک أنى رافضى شتم صفية بنت عبد المطلب. سخنت عينک، أفمن دين الرافضة شتم صفية؟ قال أبى: فسألنى الزبيرى القاضى عن هذا الحديث فحدثته، فقال: صدق والله دعبل فى قوله، لو كنت مكانه لوصلته وبررته. هذه القضية وما شابهتها جعلته يفر من الناس حيث قال شــهاب الدين أحمد، المعروف بابن عبد ربه فى كتابه العقــد الفريد (١٩٩٠م: ٢٨٩/٢): «وقيل لدعبل الشاعر: ما الوَحْشة عندک؟ قال: النَّظرُ إلى الناسِ!!»

التهمة السادسة

ذكــر أبو بكــر أحمد بن علىّ الخطيب البغــدادى (ت ٤٦٣) فى كتابــه تاريخ بغداد: (١٤١٧ق: ٢٤٥/٨) «أنبأنا أبو على محمد بن الحســين بن محمد الجازرى حدثنا المعافى بن زكريا حدثنا محمد بن يحيي الصولى حدثنا محمد بن موســى بن حماد قال سمعت على بن الجهم وقد ذَكَر دعبلاً فكفَّرَهُ ولَعَنَهُ وقال كان قد أغرى بالطعن على أبى تمام وهو خير منه ديناً وشعراً... .»

وجوابــه هو: عندما ينظر المنصف إلى تكفير علىّ بن الجهم ولعنه لدعبل يخطر بباله مظلومية هذا الشاعر الملتزم فإنه بمجرد أن طعن على أبى تمام أصبح كافراً وملحداً حيث

يستحق التكفير واللعن مع أننا نجد الكثيرين من الشعراء طعنوا الآخرين فلايوصف أحدهم بهذه الصفات؛ فضلاً عن ذلک لم يكن أبو تمام معصوماً عن الذنوب کی لايقدر أحد أن ينقده.

التهمة السابعة

إساءة دعبل إلى من أحسن إليه. قال عنه أبوالفرج الأصفهانی: (١٤٠٧ق: ١٣١/٢٠) «لم يسلم عليه أحدٌ من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم ولا ذو نباهة، أحسن إليه أو لم يحسن، ولا أفلتَ منه كبيرُ أحدٍ.»

وقال أيضاً: (الأصفهانی، ١٤٠٧ق: ١٩٥/٢٠) «كتب [المأمون] إلى أبی أن يكاتبه [دعبل] بالأمان، ويحمل إليه مالاً. وإن شاء أن يقيم عنده أو يصير إلى حيث شاء فليفعل. فكتب إليه أبی بذلک، وكان واثقاً به، فصار إليه، فحمله وخلع عليه، وأجازه وأعطاه المال، وأشار عليه بقصد المأمون ففعل. فلما دخل وسلَّم عليه تبسم فی وجهه، ثم قال أنشدنی:

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحی مقفر العرصات

فجزع، فقال له: لک الأمان لاتخف، وقد رويتها ولكنی أحب سماعها من فيک، فأنشده إياها إلى آخرها والمأمون يبكی حتى أخضل لحيته بدمعه، فوالله ما شعرنا به إلا وقد شاعت له أبيات يهجو بها المأمون بعد إحسانه إليه وأنسه به... .»

وجوابه هو: أنه لم يكن قليل الوفاء، ولم يضلّه المال كما أضلَّ غيره من قبل، وحين هجا أولئک الذين أكرموه وأحسنوا إليه كالرشيد والمأمون مثلاً، فلأنه كان يفهم جيداً أن ذلک ليس إحساناً قبل أن يكون وسيلة لشراء الضمائر والتسلط على ألسنة الشعراء. فهجاؤه لمناوئی آل البيت (عليهم السلام) لم يكن بدافع شخصی أو مادی قط، وإنما كان بدافع العقيدة الذی يملی عليه ذلک، بغضّ النظر عن سوء النتائج أو حسنها، وقد أصرّ على ما هو عليه دون أن يتردّد أو يقلّ من عزمه حدّ. إنه كان يعرف جيدا أن المأمون يتظاهر بالتشيع فخير دليل على ذلک هو استشهاد الإمام على بن موسى الرضا (عليهما السلام) بأمر منه فبديهی أن لايأبه دعبل بعطاياه ولايهمه إحسانه. ولذلک نجد فی هجاءه للمامون هدنة ولعل من أحد أسباب تلک الهدنة موضوع ولاية

العهد التى قبلها الإمام الرضا (عليه السلام)، وسبب آخر من أسباب تلك الهدنة ما تظاهر به المامون من حب آل البيت (عليهم السلام) والعطف على أشياعهم ومحبيهم. فبدا واضحا لذوى البصائر النافذة أن ما فعله المامون لم يكن إلا سياسة مرحلية لدعم جبهته فى صراعه المحموم على الحكم سياسياً وعسكرياً مع أخيه الأمين. لأن المنافقين من الشعراء كانوا يحرّضون المأمونَ على دعبل، ولكن المأمون كان يفهم جيداً ما يجب أن يتخذه لتثبيت مركزه وحاكميّته، فكيف يقتل شاعراً معروفاً بولائه لأهل بيت الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم)، وعلى مرأى من الناس، لذا أعطى لدعبل الأمان رغم أنه هجا المأمون بقوله: (ابن خلكان، ١٩٦٨م: ٢٦٧/٢؛ ابن عساكر، لاتا: ٢٦٣/١٧؛ الأبشيهى، ١٢٧٢ق: ٣/٢)

إنى مِنَ القوم الذين سيوفهم قتلتْ أخاكَ وشرَّفَتْكَ بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خمولِهِ واستنقذوك من الحضيض الأوهد

أشار دعبل فى هذه الأبيات إلى قضية طاهر بن الحسين الخزاعى وحصاره بغداد وقتله الأمين محمد بن الرشيد وبذلك ولى المأمون الخلافة والقصة مشهورة ودعبل خزاعى فهو منهم وكان المأمون إذا أنشد هذه الأبيات يقول: (ابن خلكان، ١٩٦٨م: ٢٦٧/٢) «قَبَّحَ اللهُ دعبلاً فما أوقَحَهُ كيف يقولُ عنى هذا وقد وُلِدْتُ فى حجر الخلافة ورضعتُ ثديها وربيتُ فى مهدها.» ولكن لما مات المأمون خلفه أخوه أبو إسحاق محمد المعتصم سنة ٢١٨ق، فطاردَ الطالبيينَ ونَكَّلَ بهم وكان دعبل يرى فى المعتصم خصماً عنيداً وعدواً لايمكن تركه، فأكثر به الانتقاد اللاذع والهجاء. وكان يطلبه دائماً ليفتك به ويتخلص من لسانه فوضع عليه الجواسيس وعندما بلغ دعبل أن المعتصم يريد قتله هرب. فهو لايرى شرعية الخلافة فى المامون أو المعتصم، بل كان يحصرها فى أهل بيت النبى (صلى الله عليه وآله وسلم). فلذلك نلاحظ أنه يتخذ أشعاره سلاحاً فى عقاب الحكّام العباسيين لإظهار مساوئهم ومعايبهم وحقائقهم التى يخفونها وراء أقنعتهم كما قال فى قبر الإمام الرضا (عليه السّلام) وإلى جواره قبر هارون الرشيد الذى انمحى أثره واندرس. (الأصفهانى، ١٤٠٧ق: ١٩٤/٢٠؛ ابن عساكر، لاتا: ٢٣٣/٥ ؛ المرزبانىّ، ١٤١٣ق: ٩٤)

أربِعْ بطوسٍ علي القبر الزكىّ إذا ما كنتَ تُربع من دينٍ علي وطَـرِ
قبرانِ فى طوس: خيرِ الناسِ كلِّهِمُ وقـبـر شـرِّهُـمُ.هذا مِن العِبَـرِ
ما ينفعُ الرجسَ من قُربِ الزكيِّ ولا علي الزَّكيِّ بقُربِ الرِّجْسِ مِن ضررِ

وقــال فى خلفاء بنى العباس مصــوّراً ما هم عليه من مطــاردة لأهل البيت (عليهم السلام) وتعذيب ونهب وتقتيل. (نفس المصادر)

قتـل وأسرٌ وتحريـقٌ ومنهبةٌ فعلَ الغُزاةِ بأرضِ الرومِ والخَزَرِ
أري أميّـة معذورين إن قَتَلُوا ولا أرى لبنى العباس من عُذُرِ

فهو يعذر بنى أمية فى أفعالهم حيال بنى هاشــم لأنهم يبغضونهم ويخالفونهم فى الدين والسياســة، ولكنه لايرى لبنى العباس من عذر فقد ناصرهــم العلويون فى قيام دولتهم ونجــاح ثورتهم، وكانوا يحقــدون على بنى أمية لتقتيلهم آل البيت (عليهم الســلام) وما قاموا إلا لأخذ الثأر الذى رفعوه شعاراً ولكنهم فاقوا ما فعله الأمويون.

قيــل للوزير محمد بن عبــد الملک الزيات: لم لاتجيب دعبلا عن قصيدته التى هجاک فيها؟! «قال: إن دعبلاً قد نَحَتَ خشــبته وجعلها علــي عنقه يدور بها يطلب من يصلبه بها منذ ثلاثين سنة وهو لايبالى ما قال هؤلاء وما فُعِلَ له.» (ابن المعتز، ٢٠٠٩م: ٢٦٥)

ولا شــک أن دعبل كان يهجو العباســيين ويفشــى سلوكهم الســيىء تجاه الناس. فهــو يصف "خلفاء"!! بنى العباس بملوک بنى العباس. حيــث ذكر أبوالفرج الأصفهانى: (١٤٠٧ق:١٥٧/٢٠؛ الخطيــب البغــدادى، ١٤١٧ق: ٣٧٩/٨) «كان المعتصم [محمد بن هارون ثامن الملوک العباسيين الحكم سنة ٢١٨ق] يبغض دعبلاً لطول لسانه، وبلغ دعبلاً أنه يريد اغتياله وقتله، فهرب إلى الجبل، وقال يهجوه: (الأصفهانى، ١٤٠٧ق:١٥٨/٢٠)

وقامَ إمامٌ لم يَكُنْ ذا هِدايةٍ فليسَ له دِينٌ وليس لَهُ لُبٌّ
مُلوکُ بنى العباسِ فى الكُتْبِ سَبْعَةٌ ولَمْ تَأْتِنَا عَنْ ثامِنٍ لَهُم كُتْبُ
كذلکَ أهلُ الكَهْفِ فى الكَهْفِ سَبْعَةٌ خِيارٌ إذا عُدُّوا وثامِنُهُمْ كَلْبُ»
وإنى لأعلى كلبهم عنک رفعة لأنک ذو ذنب وليس له ذنب

فكان دعبل نفســه فى صميم المعارضين لخلافته وحكمه، ولا ســيما مع تصاعد كره

المعتصم لشيعة آل البيت (عليهم السلام) ومحبيهم، ولم يكن دعبل ليسكت عن كل هذا الحيف الذى ألحقه المعتصم بالمسلمين الشيعة. مرة أخرى يهجو المعتصم والواثق [الواثق بالله هارون بن محمد المعتصم هو تاسع الملوك العباسيين، حكم لخمس سنين، تمتد من ٢٢٧ حتى ٢٣٢ق] حين علم نعى المعتصم: (الأصفهانى، ١٤٠٧ق: ١٦٠/٢٠) «... كنت مع دعبل بالصيمرة وقد جاء نعى المعتصم وقيام الواثق، فقال لى دعبل: أمعك شيء تكتب فيه؟ فقلت: نعم، وأخرجت قرطاسا، فأملى على بدئها:

الحمد لله لا صبرٌ ولا جلدٌ ولا عزاء اذا أهل البلا رَقَدُوا
خليفةٌ ماتَ لم يَحْزَنْ لَهُ أَحَدٌ وآخَرُ قامَ لَمْ يَفْرَحْ بِهِ أَحدٌ
فمَرَّ هذا ومَرَّ الشؤمُ يتبعُهُ وقام هذا فقام الظلمُ والنكدُ

استشهاده:

كما مرَّ سابقاً كان العبّاسيّون أشدّ كرهاً للعلويّين من الأمويّين وأعظم بغضاً، فأمعنوا فيهم قتلاً وحرقاً، واضطهاداً وتعذيباً. فمن ذكر عليّاً سُجن أو نُهب ماله أو هُدمت داره، وكان البلاء يشتدّ على العلويّين يوماً بعد يوم. فمن دفن الناس أحياء إلى الصلب إلى الحرق إلى الحبس ومنع الهواء والأكل والماء عن المحبوس، حتّى يقضى نحبه جوعاً وعطشاً. (انظر: الكيلانى، لاتا: ٢٢) فقُتل أنصار علىّ(عليه السلام) فى كلّ قطر وكلّ مصر وعُذّبوا تعذيباً مرّاً، قطعت منهم الأيدى والأرجل. فلم يستثن شاعرنا عن مؤامراتهم فهو بعد ما هجا مالک بن طوق هرب إلى البصرة فبعث مالک بن طوق رجلاً حصيفاً مقداماً، وأعطاه سماً وأمره أن يغتاله كيف يشاء، وأعطاه على ذلک عشرة آلاف درهم، فلم يزل يطلبه حتى وجده فى قرية من نواحى السوس، فاغتاله بعد صلاة العشاء، فضرب ظَهْرَ قدمه بعكازٍ مسمومٍ فمات من غد، ودفن بتلک القرية. وقيل بل حمل إلى السوس، فدفن فيها. (ابن عساكر، لاتا: ٢٧٧/١٧ ؛ الأصفهانى، ١٤٠٧ق: ٢٠٠/٢٠) وأما ترديد ابن عساكر فى تاريخه (لاتا: ٢٤٢/٥) بعد ذكر وفاة دعبل سنة ٢٤٦ق وقوله: [قيل: إنه هجا المعتصم فقتله .وقيل: إنه هجا مالک فأرسل إليه من سمه بالسوس] ترديد بلا تأمل، إذ المعتصم توفى سنة ٢٢٧ق قبل شهادة دعبل بتسع عشرة سنة. كما أن ما ذكره الحموى فى معجم البلدان (١٣٥٧ق: ٤١٨/٤) من [أن دعبلاً لما هجا المعتصم

أهدر دمه فهرب إلى طوس واستجار بقبر الرشيد فلم يجره المعتصم وقتله صبراً فى سنة ٢٢٠ق] خلاف ما اتفق عليه المؤرخون وعلماء الرجال من شـهادته سنة ٢٤٦ق. (ابن خلكان، ١٩٦٨م: ٢٧٠/٢؛ الخطيب البغدادى، ١٤١٧ق: ٣٨١/٨)

النتيجة

١. فى تلك النماذج التى عرضناها ما يمكن اعتباره شـاهداً على تعصب المؤرخين. ومع الرغم محاولة بعض مؤرخى الأدب العربى وبتحريض من (السـلطان) لطَمْسِ معالم شـخصية هذا الشاعر الشـهيد وآثاره وشـعره، فلقد حفظ لنا المنصفون من المؤرخين والباحثين شـذرات من كلمات نظمها شـعرا، فبقيت خالدة حتى يومنا هذا، تشير إلى الحق والخير والفضيلة.

٢. تبين لنا من سيرة شاعرنا أنه مطبوع علي الخير، يغلب علي أشعاره الهجاء لحكام الجور؛ واشـتهر بالهجاء فى عصر كان يعتبر فيه الهجاء جريمة يعاقب عليها فاعلها. فهذا النزر اليسير من شعره الذى وصل إلينا عن طريق هذه المصادر فيه دلالة على أن روح التقوى والصدق ظلت تسيطر على تصرفاته.

٣. كان دعبل شيعياً، وكان تشيعه معتدلاً معقولاً، لا غلوّ فيه ولا إسراف. فامتاز عن شعراء عصره بأنه كان جريئاً غاية الجرأة، وكان إذا ضرب لا يتهاون فى ذلک، وإذا هجا فلا يهمه أن يكون هجاؤه فى خليفة أو غير خليفة وما ذلک إلاّ لصدق نيّته وشـجاعته وإيمانه وصلابة عزيمته.

٤. فى القليل من الشواهد التى عرضنا لها من أخباره وأشعاره ما يكفى للتدليل علي حبه للإسـلام وأهله. لأنه كان يتناول فى شـعره حق آل البيت عليهم السلام الذين كان يؤمن بحقهم الصريح، فهجاؤه للحكّام العباسيين يُثبت بكل صدق ووضوح تلک الطاقة وتلک القوة الكامنة فى نفس هذا الشاعر الثائر.

٥. من خلال العرض السـابق لسيرة شاعرنا تبين أنه لم يعدل من مواقفه ولم يستطع أن يتقيـد بحدود المسـتكبرين أو أن يمتثـل لأوامرهم ونواهيهم. فهـو كما يبدو قد طبع علي الخير وكلف به وانصرف إليه وقد وجد فى الشعر متنفساً له يعبر فيه عن مكنوناته القلبية، وسخطه على قيم الظالمين.

المصادر والمراجع

ابن الأبار الأندلسى. (١٩٦٣م). الحلة السيراء. تحقيق حسين مؤنس. الطبعة الأولى. القاهرة: لانا.

ابن المعتز. (٢٠٠٩م). طبقات الشعراء. تحقيق عبد الستار أحمد فراج. مصر: دار المعارف.

ابن خلدون. (١٩٦١م). مقدمة ابن خلدون. الطبعة الثانية. بيروت: دار الكتاب اللبنانى.

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر. (١٩٦٨م). وفيات الأعيان وأنباء الزمان. تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار الثقافة.

ابن عبد ربه، شهاب الدين أحمد. (١٩٩٠م). العقد الفريد. بيروت: دار ومكتبة الهلال.

ابن عساكر، على بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعى. (لاتا). تاريخ دمشق. ثمانين مجلداً. بيروت: دار الفكر.

ابن منظور المصرى. (١٩٦٥-١٩٦٦م). مختار الأغانى. القاهرة: تحقيق الأبيارى.

الأبشيهى، بهاء الدين أبو الفتح محمد بن أحمد. (١٢٦٨-١٢٧٢ق). المستطرف فى كل فن مستظرف. القاهره: مطبعة بولاق.

الأصفهانى، أبو الفرج. (١٤٠٧ق.١٩٨٦م). الأغانى. الشرح والهوامش د. عبدالله على مهنا. بيروت: دارالفكر.

الخطيب البغدادى، أبى بكر أحمد بن على. (١٤١٧ق). تاريخ بغداد أو مدينة السلام. الطبعة الأولى. تحقيق مصطفى عبد القادر عطا. بيروت: دارالكتب العلمية.

الزّركلى الدمشقى، خير الدين بن محمود بن محمد بن على بن فارس. (١٩٩٢م). الأعلام. الطبعة العاشرة. بيروت: دار العلم للملايين.

القيروانى أبو إسحاق ابراهيم بن على الحصرى. (لاتا). زَهرُ الآداب وثَمَرُ الألباب. تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد. مصر: المطبعة الرحمانية.

الكيلانى، محمّد السّيد. (لاتا). أثر التشّيع فى الأدب العربىّ. الطبعة الأولى. القاهرة: لجنة النشر للجامعيّين.

المرزبانىّ. (١٤١٣ق). أخبار شعراء الشيعة. الطبعة الثانية. بيروت: شركة الكتبى.

ياقوت الحموى. (١٣٥٥-١٣٥٧ق). معجم الأدباء. مصر: مطبعة المأمون.

المجلات

محمد خير شيخ موسى. (١٩٨٩م). مجلة التراث العربى. «مواطِن الخَلل والاضِطراب فى كتاب الأغانى». العدد ٣٤، كانون الثانى.